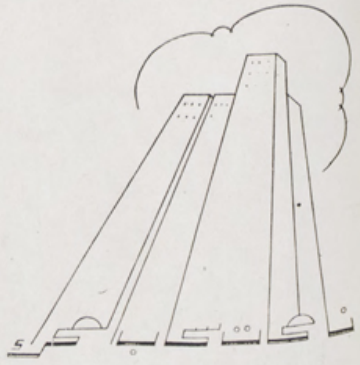

دكتور سيد كريم

بعد مسير عدة أيام نحو الجنوب فى صحراء جزيرة العرب المترامية الأطراف حيث يضرب الانسان بين وهادها وتلالها أياماً وأسابيع بين الأمل فى قرب الوصول والخوف من التيه وإذ يفقد الأمل فى رؤية أى أثر عمرانى تلوح له فى الأفق البعيد خيال مدينة صغيرة يخالها سراب تخادعه به رمال الصحراء ولكنه لا يلبث أن يداخله الرجاء والاطمئنان كلما تقدم نحوها فتتجسم معالمها ودقائقها فاذا بها حقيقة جاسمة بين الرمال شامخة تعتز بطراز اختصت به لم تتناوله يد التغيير والتبديل

هى إحدى مدينتين من مدن وادى حضرموت ومعجزة من معجزات علم الانشاء حيث لم يستعمل فى مبانيها غير الطوب النىء فقط ومع ذلك بلغت من الارتفاع ما لم تبلغه مبانى العصر الحديث إلا باستعمال الحديد والخرسانة المسلحة .

هما مدينتى طارم وديوان فخر الصحراء وأول مدن عرفت ناطحات السحاب منذ سنين طويلة وقبل أن تصل سفن كولومبس إلى شاطىء الدنيا الجديدة : أمريكا التى ابتدعت ناطحات السحاب فى مبانيها — وقد علل أحد كتاب العرب الأقدمين ارتفاع تلك الناطحات بقوله أن الله قد رفع رأسيهما عالياً دون باقى مدن الصحراء لأنهما حظيا بنشأة ملوك بنى معاوية ورفعا لواء الاسلام وثابرا على حمل علم الجهاد بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

طارم وديوان مدينتان لهما تاريخ معمارى حافل نسى العلم والتأليف أن يفرد لهما صفحة فى عالم العمارة فلا أقل من أن نشيد بذكرهما فى هذا المقال فنشرح كيف أمكن اقامة ناطحات السحاب فى الصحراء من الطوب النى .

إن الحاجة والمهارة والصراحة فى التعبير هى التى وضعت نواة ذلك الطراز وشيدت صرحه فجاء فناً جميلا على فطرته — فالحاجة هى التى وضعت هيكل تلك الدور . فعامل الدفاع هو الذى أوحى ببناء تلك الحصون المنيعة ورفعها عاليا لتشرف على الصحراء والآفاق البعيدة فتكشف مايدور خلف تلال الوادى فلا يفاجأ سكانه على غرة وهم الذين اشتهروا بالقوة والسيطرة . كذلك غطيت فتحات النوافذ بضلف سميكة من الخشب الصلب والتى يبلغ سمك كل منها ٨سم لصد رصاص البنادق ثم الفتحات المستديرة الضيقه التى توجد أسفل تلك النوافذ بالقرب من مستوى أرض الحجرات أعدت خصيصاً لاطلاق النار على المغيرين — كما أن دراوى أسطح المساكن التى يرتفع كل منها إلى أكثر من مترين والتى تعطى المرأة البدوية المحجبة حرية التجول والمعيشة الخلوية بعيداً عن الأعين وفى مأمن من ميدان الدفاع ساعدت على قيام المرأة فوق تلك الأسطح بالكثير من الأعمال التى عليها أن تقوم بها خارج المسكن فأمكنها الجمع بين السفور وعدم الاختلاط فكل تلك العوامل مجتمعة كان لها أكبر الأثر فى تكوين هذا الطراز

والمهارة هى التى بنت من الطوب النىء وجزوع النخيل تلك الصروح العالية التى يقف أمامها علم الانشاء الحديث ومقاومة المواد مأخوذا عاجزاً . فرغم وجود تلك المدن فى منطقة جبلية صخرية فمادة البناء الأساسية فيها هى الطوب وقد بنى الجزء الأسفل من حوائطها من الحجر إلى ارتفاع يتراوح بين متر وارتفاع طابق بأكمله أما بقية الارتفاع وقد وصل فى بعضها إلى تسعة أدوار فكله من الطوب النىء الذى يصنع من الطين الرمادى وأعشاب الصحراء وتعمل عجينة وتخمر ثم تترك لتجف مدة أسبوع أو أكثر فى حرارة الشمس . ويبلغ طول ضلع القوالب المربعة الشكل من ٣٠ الى ٥٠ سم وسمكها ستة سنتيمترات وتغمر القوالب عند البناء فى معجون مخفف من الطين وترص فوق بعضها فى طبقات أفقية .

وقد تركت واجهات كثير من المبانى بدون لياسة أو بياض خارجى فرسم الطوب على واجهاتها خطوطاً أفقية دقيقة أعطتها طابعاً خاصاً بينما غطيت حوائط بعضها بلياسة من نفس الطين وطبقة من الجير بارتفاعات اختلفت فى واجهة عن الأخرى وفى مسكن عن الآخر فساعدت على تقوية التكوين الحجمى (الكوبزم) .

أما كمرات الأسقف فكلها من جزوع النخيل التى تدل على مهارة فائقة من حيث طريقة الاستعمال والزخرفة البسيطة التى تمشت خطوطها مع خطوط ألياف الكمرات وفى الحجرات المتسعة حمل السقف على أعمدة خشبية دلت على دقة فى الصناعة والنحت . والحوائط مغطاة من الداخل بألواح خشبية محلاة بنقوش جمعت بين الفن الايرانى والعربى مع صبغهما بصبغة الخشونة والبساطة .

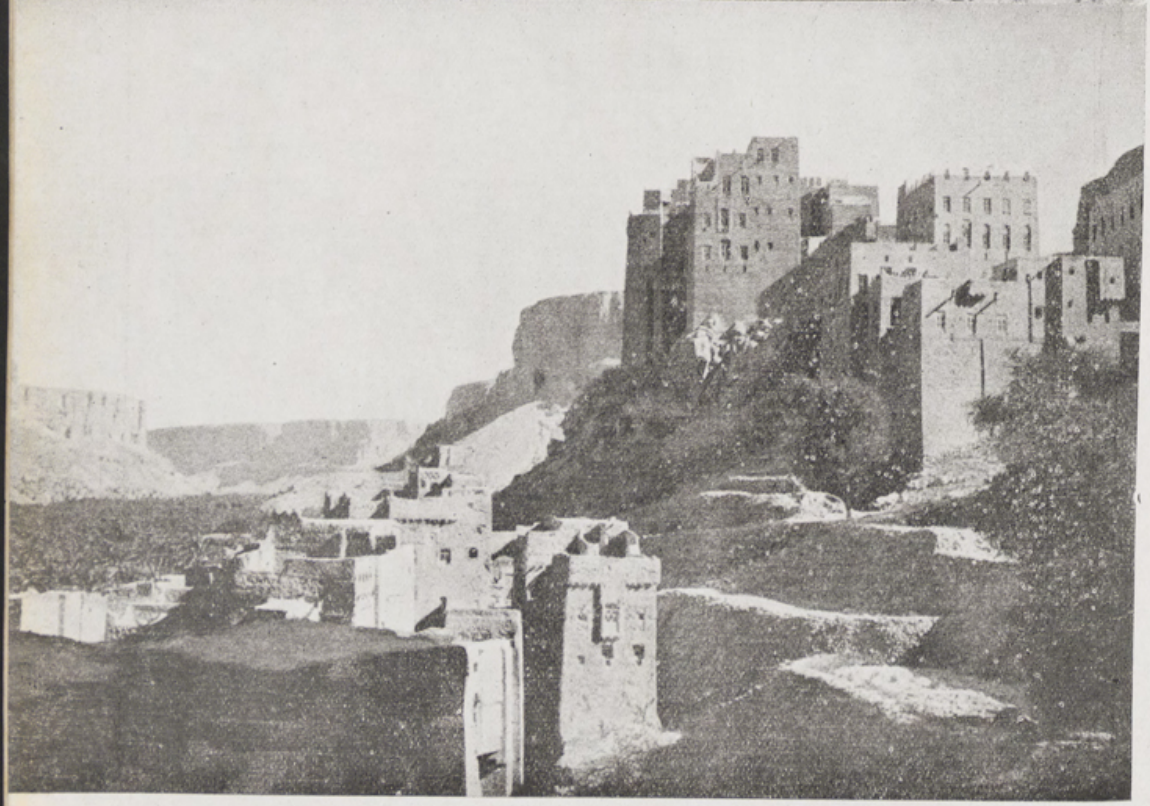

أما أرضيات الحجرات فهى عبارة عن دكة خفيفة من الطين والحصى تكسوها الأبسطة الصوفية وأنواع مختلفة من الفراء.

● بينما علت تلك الدور والمساكن وتحصنت ضد الاعتداء مالت دور عبادتها أو مساجدها . . . نحو السلم فطبعت بطابع الطمأنينة، فانخفضت اسوارها وخفت عقودها كانه لاخوف على بيت الله ومن لجأ اليه وليست فى حاجة إلى من يحميها أو كانها تنادى برمى السلاح وترك الحصون إذا نادا هم المؤذن للصلاة.

• أما من حيث الفن . فقد ضربت تلك المبانى مثلا من أروع أمثلة الكوبزم رغم كونها قد بنيت من عدة قرون قبل ظهوره فى عالم الفن الحديث — فاذا كان كل اتجاه من اتجاهات الفنون الخالدة قد تبع احساساً وعاطفة أخرجاه إلى حيز الوجود ، فالتعبير الصادق أو الصريح عن أخلاق العربى ومطالبه ومعيشته مع القوة والثقة بالنفس ، ثم البيئة التى يعيش فيها هى التى كونت هيكل ذلك الطراز الفنى فلم يعتمد فى الزخرفة على المظهر والكماليات والنحت المنسوج كما أن الطبيعة التى يحيط به من صحراء وسماء ذات المسطحات الواسعة للمساحات والمجسمات والألوان وصخور الوادى ذات الخطوط الرأسية القوية . تلك الطبيعة التى تمثل فيها الكوبزم بمعنى الكلمة أوحت اليه بذلك الفن الذى يستمد منه طابع مبناه .

فلو كانت نظريات الكوبزم ترتكز على الأبعاد الثلاثة وعلاقة المسطحات ببعضها ثم توزيع الألوان الأساسية والمكافئة لها بالنسبة لأوضاع المسطحات فها هو ذلك الطراز قد ضرب لها مثالا حيا ، فصفحه السماء الزرقاء المتجانسة والرمال الصفراء ثم الجبال الحمراء يجب أن يقابلها مكعبات قوية تجمع بين الرمادى والبنفسجى والأبيض وهى التى تمثلت فى ألوان الحوائط والظلال ، كما أن توزيع المساحات البيضاء بالنسبة للا سطح والحوائط المقوسة والعلاقة بين الفتحات الواسعة والضيقة وعلاقتها بمكعبات المبانى جمعت كثيرا من نظريات فن الأحجام الحديث .

فاذا نظر الانسان اليها من أى موضع كان ابتداء من ظهورها فى الأفق الى منظوراتها المعكوسة لوجد عدد لا يحصى من اللوح الفنية التى تعد كل واحدة منها اصدق مثل من أمثلة الكوبزم الصريح — وربما كان السبب فى اهمال ذكر هذا الطراز فى مؤلفات المعماريين راجعا الى جهل فن العمارة القديم بنظرية الأحجام والمكعبات والتى لم يهتدى اليها ويؤخذ بها الا أخيرا .

• قد يتساءل القارىء اذ يقف على هذه الصفحة المنسية من تاريخ العمارة والطرز المعمارية « إذا كان ذلك الوادى البعيد والمنعزل عن العالم الحديث ومدنيته قد حفظ له طابعه الخاص به فهل سيمكنه المحافظة عليه بعد أن امتدت يد التطور إلى جميع طرز العالم القديمة فحورتها ؟ »

فللاجابة عليه سأنقل فقرة قرأتها أخيراً عن مقال للرحالة الانجليزى Osbert Lancaster عنوانه Hadaramouth & the European Barbarism

« وعندما زرت مدينة طارم التى جمعت مبانيها بين القوة والجمال وجدت يد البربرية الأوربية قد بدأت تزحف اليها فحلت أنواع البضائع والمنسوجات الآلية الرخيصة محل الصناعات الفنية القومية الدقيقة ، حتى الصانع بهرته تلك الزخارف والنقوش الغربية فبدأ ينقل منها مايقع عليه نظره ليكسو بها مبناه ويتوج أعمدته ليلبسها حلة من الطرز الأوربية وزخارفها الرخيصة بعد ما حفظها من الموانى القريبة وحاول تقليدها بالجبس والبياض »

Clicheés Arch. Review

ومن مقال آخر لهاينز لوبكا الألمانى « وقد أحضر شيخ قرية ديوان بناءون من سنجافور لبناء قلته التى أنشاها بالخرسانة المسلحة فكانت أول مبنى بالخرسانة المسلحة اقيم فى هذه الانحاء ولها حديقة غناء نسقت على أشكال هندسية محورية من طراز فرنسى »

. . وأخيراً . . هاهى يد التطور فى قفاز من نسج الادعاء بالمدنية والعمران تمتد إلى هذه الناحية النائية المنعزلة خلف تلال الصحراء فتطوى صفحة طراز اعتز به وحافظ عليه أهل الصحراء بصدق وأمانة فى ذلك الوادى الهادىء الجميل ... وبذلك يكون تيار التطور قد بلغ قلب الصحراء فجرف معه آخر سفينة كانت فى أمن من فيضانه جاثية بين الرمال بعيداً عن مجراه .

سيد كريم